

حكاية رحيل الضباب القاتل ..

كح .. كح .. كح .. عفواً على هذه البداية، ولكن ماذا أفعل؟! .. هذه هي ظروفنا الصحية منذ عرفت تلك العلية، عموماً لا بأس دعوني أعرفكم على نفسي في البداية.

أرجو ألا تغرنكم نبرة الصوت المبحوحة، ولا أطراف الأصابع المحترقة، ولا هذه الأسنان المصفرة النخرة، فأنا لا أزال شاباً في التاسعة والعشرين من عمري، ولكنه ذلك الدخان الأزرق، وربما يعرف بعضكم أكثر مني في هذا المجال.. لا أدري حقيقة ما الذي يدفعني دفْعاً لكتابة هذه

المذكرات؟! فأننا لا نعتقد أنني سأكون في يوم من الأيام أحد المشاهير الذين يشار إليهم بالبنان، ويقرأ الناس مذكراتهم، لا أعتقد هذا أبداً، ولكن لا أدري ما ذلك الإحساس الغامض الذي يدفعني لهذا التصرف، وخاصة أنني ما عرفت نفسي كاتباً.. ربما هي رسالة أسف لزوجتي وابني.. ربما هي خاطرة.. ربما هي وصية مودع.. من يدري؟!!

الحقيقة لا أدري كيف أبداً؟ ومن أين؟ ولكنني حتماً سأبدأ وإلا لما وجدت هذه السطور طريقها

للنشر.. ربما تكون أنسب بداية هي السؤال العتيق: كيف تعرفت على الدخان؟

عفواً أحب هنا أن أنوه أنني هنا لا أريد أن أقدم نصيحة، أو حتى أتقاسف، فإذا كنت مدخناً فلا تخف واستمتع بما تقرأ فمصائب قوم عند قوم فوائد كما تعلم، وأنا أصلاً أعرف ثقل النصيحة (اسأل مجرب) - ما علينا، نرجع لكلامنا عن بدايات تعرفي على هذه السيارة اللعينة.. كانت البداية - بداية نهايتي فيما أعتقد - وكما أغلب القصص مع الأصدقاء إياهم.. (وخوفاً)، (ويا ولد ماما)، و (أتحدك)، (وإذا كنت رجلاً).. هكذا بدأت مع التدخين، وما لبثت أن انجرفت مع التيار كانت البداية رائعة، شعور بالعظمة يتعالى حولي مع تعالي الضباب القاتل فوق رأسي، إحساس بالفخر يتراكم مع تراكم (النيكوتين) في صدري، ونظرات مبهورة من (عيال) الحارة بهذا الذي كسر كل القوانين.. بالفعل كانت نعم الوسيلة لرد اعتباري ورفع قيمتي في حارتنا، بعد أن كنت صفرافاً على الشمال حتى من غير فاصلة!.. وهكذا انطلقت في عوالم الدخان الأزرق القاتمة كاليالي السوداء، وبقايا الرماد الساقطة على ثوبي كما أوراق عمري و.. والحقيقة أن شعوراً بالنفور بدأت ألاحظه زملائي - غير المدخنين طبعاً - وبدأوا ينفرون عندما اقترب، يتشتتون عندما أصل، الحقيقة ما كنت أرى سبباً لذلك: فأنا إنسان اجتماعي، محب للناس والحياة و.. كل الكلام الذي تعرفونه أنتم بالطبع، المهم بعد فترة ليست بالطويلة عرفت من أحدهم أنني منذ دخلت دوامة الدخان الأزرق - أو الأسود على حياتي - حتى بدأت أخلاقي تسوء جراء مصاحبتي للمدخنين، (فكل قرين للمقارن يقتدي)، كم كنت أحمق وقتها! لم أكن أعرف أن أخلاق الإنسان تتغير بمجرد مسكه للسيجارة.. يقولون إنني بدأت أشعر بالكبر والغرور، وصرت مملاً، وبخيلاً.. هذه حقيقة للأسف، قاتل الله التدخين! المشكلة أنني طالب ويدخن كقاطرة عجوز، فأين سأكون من الكرم وليس لي مصدر تمويل إلا

جيب الوالد خفية في أغلب الأحيان - الرجاء ألا يذهب تفكيركم بعيداً - أو التذلل على الأم أو قل الكذب عليها في أحيان كثيرة.. المهم ما شعرت بالأيام إلا وأنا لا أزداد إلا نحولاً وسهواً وانطوائية.. عندها كان لا بد أن أتزوج وكنت أظن أن مشاكلي ستنتهي، وما دريت أن هناك مشكلة جديدة ستواجهني..

كانت هذه المشكلة عند الزواج! .. فما إن أقدم للخطبة ويرى أبو العروس شفتي الجافتين كما أرض أصابها جفاف حول، وعيني الذابلتين كما عيني مؤرق لم ينم منذ سنة، ورائحتي كما رائحة مدخنة مصنع عتيق، المهم ما إن يراني حتى يعرف أنني مدخن محترف وعندها .. ظن شراً ولا تسال عن الخبر، وهكذا تكرر الأمر ثلاث مرات، وماء وجه والذي يسبح ويسبح، وأنا أشفق عليه وعلى كرامته.. وأخيراً، الحمد لله وجدت واحدة قبل أبوها أن يزوجه من مدخن.. الحقيقة عرفت السبب بعد ذلك، فقد كانت عائلة الأنساب من محترفي التدخين ولا فخر، وسبحان من جمع (شن على طبقة) - مع فاروق التشبيبه.

تخيل ابني يهرب مني عندما أريد أن أداعبه! بيتي كاد يحترق بيدي لما غفوت مرة وتركت السيارة مشتتة بين أصابعي لولا أن تداركتنا رحمة الله.. أوه.. حتماً لا داعي أن أذكر أن قلبي بدأ يعزف سيمفونية مزعجة، نشاز، وتحولت زوجتي إلى ممرضة بعدما تكالبت علي الأمراض، وازدادت علي الأعراض.

أظنكم الآن تتساءلون ماذا حل بك بعد ذلك؟ للأسف لا أحمل لكم مفاجأة، ولكن المفاجأة كانت من نصيبي أنا!، ما كنت أتوقع في يوم من الأيام أنني أمتلك إرادة فولاذية، لاني على الأقل لم أجرب استخدامهما، تركتها حتى كاد الصدا يحجبها.. ولكني فعلتها.. نعم لقد تركت هذا الضباب القاتل، تركته يرحل في غير رجعة وذلك من أجلهم.. من أجل زوجتي وطفلي و.. كح .. كح .. عفواً.

أحمد علي الصرخي